خطبة صلاة الجمعة 22/ 10/ 2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

## (هدي رسول الله ﷺ في التعامل مع كبار السن)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: 7].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31].

وَقالَ تعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:52].

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «كان رسولُ الله ﷺ إذا خطب يقول: **«أما بعدُ، فإن خيرَ الحديث كتابُ الله، وخيرُ الهدْي هدْيُ محمد، وشرُّ الأمورِ مُحْدَثاتُها، وكلُّ بدْعةٍ ضلالة»**.

قال النووي في شرح مسلم: (قوله "خير الهدي هدي محمد" جاءت الرواية بوجهين: الأول: بفتح الهاء وإسكان الدال: ومعناه الطريقة، أي أحسن الطرق طريق محمد، والثاني: بضم الهاء وفتح الدال فيهما، ومعناه الدلالة والإرشاد).

فأحسن الهدي هدي محمد، أَي أَحسَنُ الطريقِ والهِداية والدلالة والإرشاد هدي رسول الله محمد ﷺ.

**أيها الإخوة:**

بمناسبة دخول شهرِ ربيع الأول شهرِ ولادة سيدنا محمد ﷺ سأتابع سلسلةً بدأتها قبل سنتين في شهر المولد عنوانُها: (هدي رسول الله ﷺ)، تحدثت عن هديه ﷺ في العبادات الشعائرية، وهديه ﷺ في المعاملات المالية، وفي العلاقات الأسرية، وفي الشدائد والمحن، وفي مخالطة الناس، وهديه ﷺ في التعليم، وفي القضاء بين الناس وفي الدعوة إلى الله.

نتابع هذه السلسلة لنكثر من الصلاة والسلام عليه ﷺ ولنهتدي بهديه ونتأسى بسنته فننالَ الحظوة بشفاعته صلوات ربي وسلامه عليه.

واعلموا أنّ الكمال البشري معقودٌ في رسول الله ﷺ، فمن اهتدى بهديه واستن بسنته وحذى حذوه ﷺ سار في درب الكمال، وعكسه بعكسه.

ولئن تحدثت خطبة الأسبوع الماضي عن هدي النبي ﷺ في التعامل مع الشباب، فإن خطبة اليوم تتحدث عن:

## هدي رسول الله ﷺ في التعامل مع كبار السن

**أيها الإخوة:**

زيادة العمر مع حسن العمل خير وفضل لا يعطاهما إلا من اختاره الله تعالى لفضله.

أخرج الإمام الترمذي عن أبي بكرة رضي الله عنه: أَنَّ رجلا قال: «يا رسول الله، أَيُّ الناس خير؟ قال: **«مَن طال عمره، وحَسُنَ عمله»**، قال: فأيُّ الناس شرّ؟ قال: **«مَن طَالَ عُمره، وساء عمله»**.

وأخرج الحاكم وصححه قال رسول الله ﷺ: **«ألا أنبئكم بخياركم من شراركم، خياركم أطولكم أعمارًا وأحسنكم عملاً»**، وقال ﷺ: **«البركة مع أكابركم»** [ابن حبان والطبراني والحاكم]

وجدت من هدي النبي ﷺ في التعامل مع كبار السن ثلاثةً:

1- احترامهم وإكرامهم
2- كفالة حاجاتهم.
3- التخفيف عنهم والترخيص لذوي الأعذار منهم.

**الهدي الأول: احترامهم وإكرامهم:**

كان النبي ﷺ يدعو لإكرام المسنين واحترامهم فقد أخرج الإمام الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ»**.

وأخرج أبو داود عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قال «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ».

قال بعض العلماء: (جمع بين المسن وحامل القرآن والسلطان، وقدم المسن، كأنه يقول لك وقّر المسن كما توقر السلطان والرئيس والحاكم، وعظم المسن كما تعظم حامل القرآن الحاذق).

ونفى النبي ﷺ عن قوم لا يوقرون الكبار ولا يجلونهم كمالَ الإسلام، فعن عبد الله بن عمرو: أن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا» [الترمذي].

ومن جملة إكرام الكبير واحترامه أن يبادر الشاب بالسلام على الكبير: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنْ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ، وَالْمَارُّ عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ» [البخاري].

ومن جملة إكرام الكبير واحترامه أن يُقَدَّم في التشريف، فيُقدم الكبير في الشراب ونحوه. قال ﷺ: «ابدؤوا بالكبراء – أو قال – بالأكابر» [أبو يعلى].

ويُقدم الكبير في السواك: «كان ﷺ يستن وعنده رجلان، فأُوحي إليه: أن أعط السواك أكبرهما!» [أبو داود].

ويقدَّم الكبير في الكلام، فعَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ: (جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلٍ وَحُوَيِّصَةُ وَمُحَيِّصَةُ ابْنَا مَسْعُودٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَتَكَلَّمُوا...، فَبَدَأَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَكَانَ أَصْغَرَ الْقَوْمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «كَبِّرْ كَبِّرْ». يَعْنِي لِيَلِيَ الْكَلَامَ الْأَكْبَرُ) [البخاري ومسلم].

ومن جملة إكرام الكبير واحترامه أن يقدم في الإمامة إن كان فقيهاً ففي الصحيح من حديث مالك بْنِ الْحُوَيْرِثِ أن النَّبِيِّ ﷺ قال: «.. فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ» [البخاري]

فالهدي النبوي الأول في التعامل مع المسنين: احترامهم وإكرامهم، فإذا كان هذا الكبير في السن أباً أو أماً فليبلغِ الإكرامُ كمالَه والاحترامُ تمامَه، وأدلة الشريعة في بر الوالدين والإحسان إليهما وإكرامهما واحترامهما أكثرُ من أن تحصر وتجمع. وعلمُكم بها يغنيني عن التمثيل عنها.

**الهدي الثاني: كفالة حاجاتهم:**

جمع الإمام البيهقي في سننه في باب نفقة الأبوين مجموعة أحاديث عن النبي ﷺ تخبر بأن نفقة الوالدين الفقيرين على ولدهما الغني وأن السعي عليهما سعي في سبيل الله، روت السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه».

وعن ابن عمر في خبر الشاب الذي يسعى إلى عمله قال ﷺ: (إن كان يسعى على أبويه شيخين كبيرين فهو في سبيل الله).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فقال: إن أبي يريد أن يجتاح مالي قال: **«أنت ومالك لوالدك، إن أطيب ما أكلتم من كسبكم فكلوه هنيئا»**.

ومن هنا أجمع أهل العلم، على أن نفقة الوالدين الفقيرين اللذين لا كسب لهما ولا مال، واجبة في مال الولد..

وأوجب جمهور العلماء – غير المالكية – نفقة الوالدين وإن علوا، ولو كانا مخالفين في الدين. والمراد بقولهم «وإن علوا» الأجداد والجدات.

فإن انعدم الأولاد، والأرحام ولم تكن لكبار السن مدخرات أو موارد مالية، انتقل واجب الإنفاق إلى الدولة، حسب مبدأ كفالة المحتاجين، وبمقتضى الضمان الاجتماعي.

وهذا ما تشير إليه الأحاديث النبوية الشريفة، فقد جاء في الحديث الشريف: **«أيما أهل موضع أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله»** [مسلم].

حدَّث عمير بن رافع عن أبي بكرة قال: (مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بباب قومٍ وعليه سائل يسأل –شيخٌ كبيرٌ ضرير البصر–، فضرب عمر عضده من خلفه وقال: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الحاجة والسِّن، قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله، فرضخ له بشيء من المنزل، ثمَّ أرسل إلى خازن بيت المال، فقال: انظر هذا وضُرَبَاءه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثمَّ نخذله عند الهرم).

وجاء في كتاب خالد بن الوليد رضي الله عنه لأهل الحيرة، ولم يكونوا من أهل الإسلام: (وجَعَلتُ لهم: أيُّما شيخ ضَعُف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدَّقون عليه طُرِحَت جزيته وعِيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة).

الحاصل أن كفالة حاجات كبار السن من هدي رسول الله ﷺ في تعامله معهم.

**الهدي الثالث: التخفيف عنهم والترخيص لذوي الأعذار منهم:**

فالأحكام الشرعية في الإسلام تأخذ في الاعتبار مبدأ التخفيف عن صاحب الحرج، كالمسن..

نرى ذلك بوضوح في جل التشريعات الإسلامية.. فقد خفف الشرع عن المسن في الكفارات والفرائض والواجبات..

فأجاز للمسن أن يفطر في نهار رمضان – ويطعم – إذا شق عليه الصيام، وأن يصلي جالسًا إذا شق عليه القيام، وأن ينيب عنه في الحج إذا عجز عن أدائه.. أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (جاءت امرأة من خثعم عام حجة الوداع قالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على الراحلة فهل يقضي عنه أن أحج عنه؟ قال: نعم).

ولام رسول الله ﷺ معاذ بن جبل ذات يوم لما صلى إمامًا فأطال فشق على المأموم، قائلا:

**«يَا مُعَاذُ! أَفَتَّانٌ أَنْتَ! فَلَوْلَا صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ!»** [البخاري]

**وبعد أيها الإخوة:**

هذه ثلاثة في هدي النبي ﷺ في التعامل مع كبار السن: احترامهم وإكرامهم، وكفالة حاجاتهم، والتخفيف عنهم والترخيص لذوي الأعذار منهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

والحمد لله رب العالمين